جمعية التاريخ والمعالم الأثرية لولاية قالمة

المعالم

دورية علمية محكمة تعنى بنشر البحوث
والدراسات التاريخية والتراثية



جمادى الثاني 1432 ماي 2011 العدد: 12

الكاهنـــة لأحمـــد جلـــول

أ د. علاوة عمارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة

يعتبر أحمد جلول من الشخصيات الأدبية والسياسية المهمة الـــتي عرفتـــها مدينة قالمة بعد الحرب العالمية الثانية. فهو المجهول لاختفائه في ظروف غامضة. ولم يترك بصماته لدى الأجيال اللاحقة من الأدباء الجزائريين. بل إنه مجهول لدى العدد الأعظم من الكتاب والنقاد الجزائريين على الرغم من نشره لتراجيديا تاريخية هامـــة باللغة الفرنسية في باريس حملت عنوان "الكاهنة". ولهذا فهو غائـــب في معـــاجم القصاص الجزائريين وحتى في معاجم السياسيين الوطنيين. وتعود معرفتي بكتابه إلى عام 2006 عندما اقترح عليّ أ. د. اسماعيل سامعي تقديم نص المسرحية التي احتفظ بها رفقة ملاحظة مخطوطة سلمهما إياه المرحوم الشيخ زهير الزاهري. لقد فرحـــت بموضوع التراجيديا خصوصا وأنه يعالج شخصية تاريخية وصلتنا في صور أسطورية متعددة وجد مختلفة[1]، وبعد تردد حاولت في هذه الأسطر إعطاء لمحة عن هذا العمل الأدبي الذي يندرج من الزاوية الأدبية في إطار الأدب المغاربي الناطق باللغة الفرنسية (Une littérature maghrébine d'expression française)، وهدفي الأساسي من

---

[1]– لم تقتصر الصور المتعددة للكاهنة على ما وصلنا في الكتابات الإخبارية، بل إنها وصلتنا أيضا في روايات شفوية جد متعددة وباستطرادات واسعة. أنظر حول هذا الموضوع:

Abdelmajid Hannoum, « Historiographie et légende au Maghreb : La Kâhina ou la production d'une mémoire », *Annales. Histoire, Sciences sociales*, 54-3 (1999), p. 667-686.

ذلك هي دعوة لدراسة التراث الأدبي لتيارات الحركة الوطنية الجزائرية في مرحلة النضال الشامل ضد النظام الاستعماري وحلفائه.

أحمد جلول وتشكيل النواة النضالية الأولى بمنطقة قالمة

لا نكاد نعثر فيما بين أيدينا من وثائق ونصوص حول حياة شخصية أحمد جلول النضالية، بالرغم من أنه من زعماء النواة الأولى لحزب الشعب الجزائري بمنطقة قالمة-عنابة، رفقة عبد القادر هرقة، وعمار بوجريدة، وعمار أوصيف، وعمار عيساني، واحسن دمناتي. وبعد حل حزب الشعب الجزائري عشية الحرب العالمية الثانية، تم توقيف أحمد جلول وعبد القادر هرقة، وعمار بوجريدة من طرف السلطات الاستعمارية، ليحكم عليهم على التوالي بخمس وتسع وثمان سنوات سجنا مع غرامة مالية من طرف المحكمة العسكرية بمدينة الجزائر[1]. وقد قضى أحمد جلول خمس سنوات في إقامة جبرية بمدينة المسيلة ما بين 1939-1945، أين كتب آخر أعماله الأدبية-النضالية وهي تراجيديا الكاهنة.

بين التراث المشرقي وروح التجديد

بعد كتابتها في إقامته الجبرية المسيلية، لم تنشر مسرحية تراجيديا الكاهنة (Al-Kahna) إلا عام 1957 بباريس[2] في جو مشحون متميز بنهاية الخيار السلمي كسبيل لتحرير الجزائر لصالح الخيار العسكري الشامل. فكانت تراجيديا الكاهنة

[1]- تتوافق شهادات كبار القياديين في حزب الشعب الجزائري حول فترة تكوين خلايا الحزب في الداخل وما جرى بعد ذلك. أنظر حول هذه القضية الشهادات المثيرة والمأثرة لمصالي الحاج وعمر خيضر.

Messali Hadj, *Mémoires (1898-1938)*, Alger, Anep, 2005; Ameur Khider, *La vie d'un orphelin. Mémoires d'un grand militant*, Alger, Les éditions Ihaddeden, 2006.

[2]- Ahmed Djelloul, *Al-Kahna. Pièce-tragédie en 4 actes*. Paris, Debresse éditeur, 1957, 92 p. (Collection Pleins Feux).

رسالة واضحة للقارئ الفرنسي ولمشاهدي المسرحيات مدى العمق البطـولي "للأهلـي المسلم". إن سلوك أحمد جلول كان من خلال إدراكه أن النوع الروائي والمسرحي قـد قلب الأوضاع الكلاسيكية بخطابه الصريح والواقعي في المجال الأدبي. ويظهر من خـلال الكتاب ولوع أحمد جلول بالشعر الهادف. واتخذ موقف معارض من الرواية المتفرقة الـتي غزت السوق الأدبي والتي لم تترك أي مكانة للتراجيديا. ويرجع سبب ذلك الموقـف إلى أن القارئ يفضل قراءة كتاب واضح أحسن من شيء آخر. ولهذا فقد حـاول التوفيـق بين أسلوب التراجيديا مع الخطاب الشعبي لإخراجهـا مـن الأسـلوب الكلاسـيكي النخبوي. ففي نظر أحمد جلول، لا يمكن عزل المسرح عـن ازدهـار الآداب العـابرة للقارات. إن نزوع الكاتب إلى الشعر تبرزه الأبيات التالية:

Poète, reprends ta plume, appelle ta Muse
Ton âme l'exige
Chante la nature si cela t'amuse
Mais peins-en le refuge
Ecris ce que tu veux, mais écris tout de même
Crie ta souffrance
Pleure et fais pleurer ceux qui s'aiment
Dis-leur ce qui tu penses

لقد تحدث أحمد جلول الأدب المشرقي القائم على المشافهة في الهواء الطلق وما يؤديه من دور في المجتمع، مع الإشارة إلى تنوعه من خلال ذوقه المتعـدد بـين المؤرخ والبلاغي والشاعر وعالم الدين والخطيب:

« Riches comme pauvres, lettrés et primaires, dans la boutique ou sous la tente, du faiseur de négoce ou taciturne paysan, chacun était selon ses références et ses goûts : historien,

rhétien, poète, théologien, orateur, du fait d'une société liée par les rapports des habitudes, du commerce, du contact qu'occasionnaient les échanges des matières, et enfin de la solidarité entre les humains, dont la religion de Dieu a fait une Loi. »

تحدث أحمد جلول بعد ذلك عن ما سماه بالتاريخ السري المنتقل من جيـــل إلى جيل دون أن يتعرض إلى أدنى تحريف وهنا يعطي مثال على "ألف ليلة وليلة، وهنا يعطي للرواية الشفوية الدور المحوري في انتقال العلوم والمعارف والتي منها المعرفة التاريخيـــة. إن هذا الموقف يقرّب المؤلف من التيار الأنثربولوجي المؤيد لدراسة المجتمعات المتميزة بثقافـــة المشافهة بعيدا عن التصوير الخارجي المتميز بالاستعلاء والعدائية في غالب الأحيان.

« L'Histoire narrée, passait et repassait d'une génération à une autre génération sans subir la moindre altération. Le recueil des « Mille te une nuits » la plus importante collection historique de tous les temps, fut, pendant des décodes, à l'état anecdotique jusqu'au jour où, sous l'impulsion des Abbassides, sa publication devient effective, puis complétée ».

إن التاريخ في نظر أحمد جلول هو إذن روايات ونوادر تنتقل بأمان من جيل إلى جيل دون أدنى تحريف، وهو بذلك يتناقض مع الآليات المنهجية للمنهج التاريخي وخصوصا المقاربات الأنثروبولوجية التي أفرزتها التوجهات العلمية المعاصرة. فالتاريخ هنا هي نوادر تنقل مشافهة، وكأننا هنا في مجتمع الريف أو البادية بالمفهوم الخلدوني، الذي لم يصل بعد ثقافة الكتابة. إننا في مرحلة المعرفة التاريخية قبل الوصول إلى الكتابة التاريخية. وهنا يقر جلول باختفاء هذا الفن من التاريخ الشفوي مع ترك مجموعة من البصمات والمعالم.

بعد تطرقه إلى معالم مدينة المسيلة التي حافظت على طابعها الصحراوي رغم بناء عدد من المنازل الأوروبية وإلى شباب المسيلة الذين يقرأون لشوقي وإيغو (Hugo) ولامارتين (Lamartine) وراسين (Racine) ، عرض جلول بعض كتابات أحد شباب المسيلة[1]، وعن عادات وسكان هذه المدينة ومحيطها القبلي المتميزة بكرم الضيف وبتقديم الشاي والكسكسي، خصوصا بعد تجربته مع صديقه محمود وتنقلاتهما المتكررة إلى بوسعادة. وهنا يلفت نظره بئر على الطريق ذكّره بمكان لذاكرة تاريخية، وهو بئر الكاهنة في منطقة الأوراس. وهنا دخل جلول في روايات تاريخية تؤكد تبلور فكرة الوطن التاريخي للشعب الجزائري الذي يتمتع بحرية منذ آدم كبقية الشعوب:

> « Depuis Adam, l'humain aime la liberté par-dessus tout, car la liberté est un bien précieux, acquis comme un don de la Toute-puissance et qui ne peut s'arracher qu'avec la vie ».

[1]- Pourtant, j'aime ce coin,
Préférable à Constantine
Quelque chose me retient
Et j'ai bonne mine !

بطل الحديث الذي دار بين جلول وصديقه محمود الذي اكتشف أنه عربي مسلم فخور بانتسابه للبربر النوميديين شبيه بانحدار الفرنسيين من العرق الغـالي، بعدما درس في الثانوية، و لم يعرف أن بلاده الجزائر كانت تـسمى نوميـديا، و لم يعرف كذلك بأن يوغرطا كان ملكا وطنيا مقاوما للغزوة الرومانية

إن الإسلام الأول هو وريث الديانة السماوية التي نادى بها إبراهيم الخليل وبالتالي فهو سابق للمسيحية. هذه الأخيرة لم تسبق عهد ماسنيسـا وماسيبـسا ويوغرطا ويوبا الأول ويوبا الثاني. وحتى أن الكاهنة في نظر جلول كانت تـدين بديانة سماوية، وكان ورعها سببا في وصولها إلى الحكم. كانت هذه المقدمات سببا في تفكير محمود في كتابة تاريخ لتلك البداية التاريخية والدينية وهنا يـبرز منطلـق جلول في محاولة كتابة تراجيديا من أربعة فصول.

مسرحية الكاهنة: التأصيل للبناء وروح المقاومة من أجل الحرية

تشترك عدة شخصيات في مسرحية-تراجيديا الكاهنة، بطلتها هي الملكة البربرية الكاهنة بالاشتراك مع شخصيات أخرى لعبت أدوارا مختلفة:

إيزال: المزور

أغيلاس: نبيل بربري

جرجير: جنرال "بربري"

برانس، وآث هوجور وأدربال: وكلاء

هدراس، وبوث، وزوروال، وأيازيل: أعيان

أدرار ويور: ابنا الكاهنة

إسالة: خادمة الكاهنة

علجية: كافلة أولاد.

إن المسرحية مرتبطة زمانيا بالفتح الإسلامي للجزائر ومكانيا بسفح جبل الأوراس في قصر غير مغطى، حيث تقطن الكاهنة مع أولادها. بمجرد سماعها لخبر مقتل كسيلة على يد القائد العربي زهير بن قيس بكت كثيرا. وقد شبه المؤلف هذه الواقعة بالشهداء النوميديين في مواجهة الغزاة الرومانيين. إن إدارة الكاهنة لإمبراطورية مكنها من التفكير في مواجهة العرب. وهنا تدخل شخصية خالد بعد وقوعه في يدها بعد معركة مع العرب. وتقترح الكاهنة اسم Nestor عليه في محاولة لتبنيه كابن لها. إن تساءل الكاهنة حول الأهداف الحقيقية للعرب، خصوصا وأن خالد حاول إقناعها بضرورة الدخول في مملكة الإسلام. لتتواصل مختلف فصول المسرحية بهذه الصورة الحوارية باستعمال معطيات تاريخية.

إن ما يمكن ملاحظته هنا هو محاولة التأصيل تاريخيا للشعور "الوطني" النوميدي من خلال إيجاد رابط بين الملوك النوميديين من جهة وبين كسيلة والكاهنة من جهة ثانية. إنه محاولة لا تاريخانية لإيجاد الوطنية النوميدية. لكن هذا الربط لم يبرر في شقه العربي الإسلامي برفض الدين الجديد، وإنما حاول جلول ببساطة إبراز مركزية الحرية والمقاومة في الماضي الجزائري.

إن هذا التقسيم السريع لـ "كاهنة" أحمد جلول هي دعوة للأدباء للبحث عن كل تراث أحمد جلول ودراسة أعماله الأدبية-النضالية في سياقها التاريخي. وإن هذا السكوت الرسمي والعلمي عن هذا الشخص يطرح أكثر من سؤال حول موقف هذه الشخصية من انقسام حزب الشعب الجزائري، ومن الثورة التحريرية بصفة عامة، بعد بقاء عدد من القيادات التاريخية المحسوبة على التوجه المصالي بعيدا عن المعركة الأخيرة التي حطمت إلى الأبد مشروع "الجزائر الفرنسية". فالبحث في الأرشيف الخاص بالحركة الوطنية في منطقة قالمة سيعطي دون شك الإجابة على عدد من التساؤلات المطروحة.